محمد علي التسخيري*

الغرب والصحوة الإسلامية

(الصفحات ١١-٣٤)

ملخّص

تعود العلاقة بين الغرب والعالم الإسلامي إلى زمن ظهور الإسلام. والحروب الصليبية التي شنّها الغرب على المسلمين جعلت العلاقة بين الجانبين متأزمة دموية. وبعد سقوط الدولة العثمانية، تفاقم هجوم الغرب عسكريًا على المسلمين وأكثر منه ثقافيًا، غير أن مساعي الغرب كلها باءت بالفشل أمام تصاعد الصحوة الإسلامية. وهبّ الغرب لمواجهة هذه الصحوة ضمن تصوراته عن العالم الإسلامي. وهذه التصورات نراها في كتاب *مستقبل الإسلام والغرب* لشيرين هانتر، وفيها نظرة قائمة تجاه الإسلام الحضاري وتجاه عودة الإسلام إلى الحياة. وهذه النظرة نجدها عند الساسة والاستراتيجيين الغربيين. والخطاب الغربي يتجه نحو تقليل أهمية الصحوة الإسلامية، واختلاق عوامل غير صحيحة لنشوئها، غافلين عن العامل الأساس المتمثل في طاقات الإسلام الذاتية التي تدفع المسلمين باستمرار نحو التفوق الحضاري والمنافسة في قطع مدارج الكمال المادي والمعنوي. كما أن تصرفات الغرب الظالمة تجاه المسلمين تدفع بالصحوة إلى الابتعاد عن الانبهار والتبعية للغرب.

---

* - الأمين العام للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية.

● محمد علي التسخيري

مقدمة:

العلاقة بين العالم الإسلامي والغرب تبدأ مع ولادة الإسلام. ومطالعة الآيات الأولى من سورة الروم توضح أن المسلمين – رغم قلة الاتصالات آنذاك – كانوا يراقبون الحوادث العالمية بكل قلق. وعلى الطرف الآخر كان المشركون أيضًا يراقبون. ولم تكن مسألة انتصار الفرس على الروم ـ كما يبدو ـ مسألة يمر بها المسلمون والمشركون بشكل عادي، فيفرح هذا ويحزن ذاك، وإنما كان انتصار أي طرف يعني رجحان كفة الإيمان أو الشرك مما يكشف عن تصور الصراع على مستوى أوسع من الجغرافيا بلا ريب. وهنا يبدأ التحدي والرهان ـ على ما تقوله بعض الروايات،[١] ويتجلى صدق الوحي بأن الروم ـ وكانوا في معسكر الإيمان لأنهم من أهل الكتاب – بعد أن غلبهم الفرس المشركون سينتصرون في بضع سنين، وهذا ما حدث بإرادة الله تعالى.

ولكن لا الروم ولا الفرس ما كانوا يشعرون بما يخبئ لهم القدر من كيان سينطلق من رحم الصحراء ويكبر بعين الله وينقذ الأرض من وهدة الضياع. وربما سمعوا بذلك ولم يكترثوا حتى جاءتهم الأنباء بكبر هذا الوليد الصحراوي، ثم جاءتهم كتب الرسول الأكرم(ص) تطلب منهم الإسلام حتى يسلموا.

فهذا كتاب إلى كسرى ملك الفرس يقول فيه(ص): <أدعوك بدعاية الله فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حيًا ويحق القول على الكافرين. أسلم تسلم. فإن أبيت فعليك لعنة المجوس> وهناك نصوص أخرى. [٢]

وراحت الكتب تترى إلى عمال كسرى. [٣]

وهذا كتاب إلى قيصر عظيم الروم جاء فيه <أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا تعبدوا إلا الله ولا تشركوا به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضًا أربابًا من دون الله فإن تولّوا فقولوا اشهدوا بأنّا مسلمون».[٤]

وكذلك توالت الكتب على عماله.

واختلفت ردود الفعل، وكان رد الفعل المسيحي أكثر تعقلا من رد الفعل المشرك، ثم كانت المناوشات وانتهى الأمر كما نعلم إلى هزيمة الإمبراطوريتين أمام هذا الكيان خلال فترة وجيزة من الزمان. وكان المد الإسلامي الأول سريعًا وكاسحًا أذهل الطرفين فانهار أحدهما وانحسر الآخر إلى عمقه الأوروبي تاركًا الشام ومصر والمغرب بعد أن حكمها قرابة ألف عام تقريبًا ومنذ غزو الاسكندر لها.

وكان التقدم هذا مثار إعجاب المؤرخين الكبار من أمثال ثوراستروب وغوستاف لوبون وتوينبي وتوماس أرنولد.

وكانت مقاومة الفرس والروم عنيفة[٥] ولكن الإسلام كان قد بعث في العرب المسلمين ثورة لا تقاوم. واستمر التفوق الإسلامي تاركًا أثره في الغرب، وإن كان الأوروبيون قد سعوا لإنكار ذلك والتأكيد على أن اجتياح الشعوب الجرمانية حدود الرومان هي نقطة التحول في التاريخ الأوروبي وليس الإسلام.

يقول الأستاذ أنور الجندي:

«ظلت الدولة الرومانية قائمة وظلت حضارتها باقية بعد أن اجتاز الجرمان حدودها واستقروا في نواحيها. وكان ما حدث أن انتقل مركزها من روما إلى بيزنطية وأصاب حالتها المادية والعقلية شيء من الركود والفساد.

ولكن لم تهب ثورة الإسلام وتسير كتائبه إلى أراضي الرومان حتى تلاشى كل ما كان لها من معالم وآثار وكأنها كانت رمادًا ذرته الرياح. وقامت دولة جديدة، وظهرت حضارة جديدة حاصرت أوروبا من الشرق والجنوب... فلولا ظهور الإسلام لظلت الإمبراطورية الرومانية قائمة... ولما قامت الثورات القومية التي خلقت دول أوروبا الحديثة».[٦]

ورغم أن بعض المؤرخين الأوروبيين يمجدون معركة بواتيه التي قادها شارل مارتل

وأوقف زحف المسلمين عام ٧٣٢م (١١٤هـ) ويعتبرونها نصرًا لأوروبا إلا ان الآخرين منهم يعتبرونها من أشأم الفواجع في القرون الوسطى ـ كما يقول كلود فاير ـ حيث تقهقرت أوروبا ثمانية قرون. (٧)

وأثناء ذلك شنت الحروب الصليبية لمدة قرنين (١٠٩٩م – ١٢٩٥م) فدمرت الأخضر واليابس، ولكن أوروبا اكتسبت الكثير من هذا التلاحم مما شكل سر بدء نهضتها في القرن الخامس عشر (أي بعد ٣ قرون).

والطريف أن نجد من الكتاب الأوروبيين المحدثين من يعترف بأن الإسلام شكل العامل الخارجي للنهضة الأوروبية في القرن الخامس عشر الميلادي فليكن الغرب اليوم العامل الخارجي لنهضة العالم الإسلامي في القرن الخامس عشر الهجري! (٨)

وبينما كانت أوروبا تمر بظلمات القرون الوسطى (من القرن الخامس حتى القرن الخامس عشر) كانت الأرض الأخرى مشرقة بالإسلام في الشرق بل في جزء من أوروبا أي الأندلس.

وفي عام ١٠٩٩م بدأت الحروب الصليبية وبتحريك من الكنيسة وجرت فجائع يندى لها جبين الإنسانية. وهي وإن عبرت عن حقد وتعصب، ولكنها تعبر عن تسرب الخوف الكبير للغرب من الإسلام الحضاري الزاحف، فليس صحيحًا ما تقوله هانتر من أن الغرب بدأ يشعر بذلك منذ سقوط <غاليبولي> بيد الأتراك عام ١٣٥٩م، بل سبق هذا الخوف الحروب الصليبية نفسها.

وكان دخول الإسلام إلى الأندلس في عام ٩٢–٩٥هـ (٧١١–٧١٤م) بدء الإشراقة في أوروبا لا في الأندلس فقط، ودام ثمانية قرون (حتى سقوط غرناطة عام ١٤٩٢) لتبدأ معه النهضة الأوروبية ورغم أن الإسلام خسر الأندلس فإنه أقام في أفريقيا إمبراطورية مالي وإمبراطورية كادا في نفس القرن.

وهكذا تداول الغرب والإسلام القوة والغلبة. ويعتبر الأستاذ سمير سليمان(٩) أن

الهجوم الغربي الثاني بدأ عام ١٧٩٢م عند نزول نابليون الاسكندرية وتوالت الحملات وأهمها:

عام ١٨٠٠ سيطرة الهولنديين على أندونيسيا.

١٨٣٠ سيطرة فرنسا على الجزائر

أواخر القرن التاسع عشر: سقوط القوقاز وتركستان على يد الروس.

١٨٥٧ سيطرة بريطانيا على الهند.

١٨٦٩ افتتحت قناة السويس

١٨٨٢ احتلال الانكليز لمصر

١٨٩٢ احتلال الانكليز للسودان

١٩١٧ دخول الحلفاء بيت المقدس وبدء سقوط العثمانيين.

١٩١٨ تحقق السيطرة شبه التامة للانكليز والفرنسيين على العالم الإسلامي.

١٩٢٤ سقوط الدولة العثمانية.

١٩٤٨ إنشاء إسرائيل.

هذا الهجوم الكاسح أغرق العالم الإسلامي في حالة من الذهول ولكن بدأت ردود الفعل القوية، وهكذا لاحظنا ردود الفعل التالية:

عام ١٨٣٠ بدء ثورة الجزائر

١٨٣٩ – ١٨٩٧ حركة الإصلاح التي قادها الأسدآبادي (الأفغاني) وعبده والكواكبي.

١٨٣١ الحركة السنوسية في ليبيا.

١٨٥٧ ثورة المسلمين في الهند

١٨٨٢ الثورة العرابية في مصر.

١٨٩٥ ثورة المشروطة الإيرانية

١٨٨٩ الثورة السودانية

١٩١٩ ثورة سعد زغلول في مصر.

١٩٢٠ ثورة العشرين في العراق

١٩٢٤ الثورة السورية والسودانية

١٩٢٤ الثورة الخطابية (ثورة الريف)

١٩٣٠ ثورة عمر المختار في ليبيا

الثورة الإسلامية في الهند الشرقية وتركستان والقوقاز (ثورة الشيخ شامل) والعمانيين والسواحليين.

ثورات المقاومة الإيرانية ضد المحتلين والعملاء في مطلع القرن العشرين من قبيل: ثورة تنجستان في الجنوب وثورة الغابة في الشمال.

١٩٣٥ الثورة الفلسطينية

الى جانب ردود الفعل هذه ـ وكانت تختلف أحيانًا في الأهداف والمناهج ـ نجد أن الغرب الذي استطاع أن يقضي على الوجود الإسلامي السياسي بسقوط الدولة العثمانية الذي نعده الكارثة الكبرى عام ١٩٢٤ ـــ بدأ هجومه الثقافي يتعاظم والتصريحات الصليبية الجديدة تطرح بوضوح ضد الإسلام (ولعلها لم تنقطع لحد الآن وإن اختفت أحيانًا) وكان كتاب اللورد كرومر المنتشر عام ١٩٠٨ الوجه الصارخ لهذا الهجوم، حيث زعم فيه أن الإسلام قد مات، أو أنه على أبواب الموت ولا يمكن أن تعيد إحياءه الإصلاحات لأن الموت كامن في جوهره الذي يركز على تخلف المرأة وجمود الشريعة فينبغي للعالم الإسلامي، كي يساير التطور، أن يقبل التحديث بدون الإسلام[١٠] وهي نظرة تمثل نظرة المستشرقين الجدد كما تسميهم هانتر وترى أنهم يتفقون على أن الإسلام بطبيعته لا ينسجم مع الحداثة وبالطبع مع التغريب، وتصفهم بأنهم «جبريون ثقافيون يعتقدون أن المسلمين يفكرون ويتصرفون وفق طرائق معينة لأنهم مسلمون..

وإن الطريقة الوحيدة التي يسع الغرب التعامل بها مع الظاهرة الإسلامية هي المقاومة والقمع والاحتواء وينصحون بمساعدة الغرب لتلك الحكومات المسلمة التي تقاوم إسلاميها حتى يُزالوا أو يخضعوا كليًا..» (١١)

وبدأ التراجع الفكري الإسلامي بإبداء محمد عبده روحًا مهادنة تجاه كرومر(١٢) وقد تلقف هذه المهادنة الفرع العلماني من مدرسته كلطفي السيد وسعد زغلول وطه حسين وإسماعيل مظهر، وبالتالي وصل إلى ما يقرب من نظرة كرومر. وقد ساعدتها في ما بعد المدرستان القومية والماركسية اللتان نشطتا في المنطقة الإسلامية في أواسط القرن العشرين.

وإلى جانب هذه النظرة العدائية المعادية من قبل الغربيين للصحوة الإسلامية كانت هناك نظرة استشراقية أخرى تطلق عليها هانتر اسم <العالم ثالثيين الجدد> وتؤمن بأن الحاكم في العالم الإسلامي هو <القيم والمصالح معًا> وبالتالي فمن الممكن تصور تصالح بين العالمين الإسلامي والغربي وهي تؤيد هذه النظرة.

والحقيقة أن القيم الإسلامية إنما ترفض الجانب المعادي للإنسانية في الغرب كالتحلل الجنسي، واستغلال الشعوب، ورفض الحياة الخلقية والكيل بمكيالين والعمل على محو الثقافات الأخرى، والاستعمار بشتى ألوانه، وأمثال ذلك وفيما عدا ذلك فإن هناك نقاط التقاء كثيرة ونقاط تقبل الحوار.

ثم إن المصالح لا تشكل مساحة ترفضها القيم، فالقيم في الواقع إنما تعمل على تحقيق المصالح الإنسانية السامية. وعلى أي حال، فقد سعى الغرب بشتى الوسائل لقهر وجود الأمة عبر هجومه العسكري والثقافي والتسللي من خلال عملائه أو المنبهرين بحضارته لضرب القوة الإسلامية بعد قضائه على الدولة العثمانية، ولما لم يحقق الاستعمار المباشر لكل المنطقة الإسلامية أهدافه، راح يجرب فكرة إعطاء الاستقلال الشكلي مع العمل على مسك أزمة الأمور بيده، وهنا شهدنا مولد الدول أو المجموعات المحدودة والتي

تعتمد فكرة الأساس القومي أو الجغرافي ممزقًا بها جسد الأمة الإسلامية الواحدة، ومحققًا هدف الاستعمار.

ولكن هذه الحالة سرعان ما أثبتت أنها لا تحقق للغرب هدفه، ولم تلبث إلا قليلاً بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية حتى رحنا نشهد تنامي الحس الشمولي الإسلامي وقيام المؤسسات الإسلامية الشمولية، وخصوصًا عند المنعطفات الحساسة من قبيل إحراق المسجد الأقصى الذي أدى إلى اشتعال الغضب الإسلامي، ونجاح الثورة الإسلامية في إيران في القضاء على النظام الرجعي العميل للغرب، وانتصار المجاهدين الأفغان على القوة الروسية العظمى، وأخيرًا انهيار القوة الإلحادية الكبرى وانعتاق الشعوب الإسلامية المحتلة، مما أوجد فكرة إسلامية شمولية ضخمة اضطر الغرب معها إلى تغيير استراتيجياته.

وقد فوجئ الغرب بهذه الظاهرة العارمة، ظاهرة الصحوة الإسلامية، وراح يحللها بوسائله وتصوراته ليكتشف نقاط القوة والضعف فيها، ومن ثَم يعمل على مواجهتها «إذن من المهم أن تحدد الأسباب الأساسية للظاهرة الإسلامية وأبعادها المعادية للغرب وأن تقوم في شكل صحيح وأن يتم تبني السياسات الملائمة للتعامل معها»[١٣] وسوف نركز على نموذج من الرؤى الغربية فيما يلي:

مع كتاب (مستقبل الإسلام والغرب) لشيرين هانتر

لكي نقف ولو بشكل سريع على هذا الكتاب علينا أن نعطي لمحات عن مسيرة البحث فيه على النحو التالي:

١ – تبدأ الكاتبة بالحديث عن رواية ضابط بريطاني ألّفها عام ١٩١٦ على فرضية قيام ثورة إسلامية من شأنها، إذا ما اندلعت، أن تقلب مجرى الحرب العالمية الأولى وهو يعلن: أن الشرق في انتظار إشارة إلهية.

ثم تذكر أن <كراوثمر> عبر بعد ٧٥ عامًا عن مخاوفه من أن أميركا تواجه الخطر الأصولي الإسلامي.

٢ - وتقرر أن أوروبا كانت تواجه هم الخطر الإسلامي منذ سنة ١٣٥٩ بسقوط <غاليبولي> بيد الأتراك وتعرج على الخوف الذي استولى عليه بظهور الإمام الخميني(رض).

٣ - وتتحدث عن الصراع القائم في الغرب بين الدين والعلمانية، وتعلن أن الفصل بين الثقافة والإيديولوجيا هو فصل زائف.

٤ - ثم تذكر أن ميزات الإسلام تجعله خصمًا حضاريًا باستمرار للغرب.

٥ - وتركز على دور النفط في إذكاء الصراع، الأمر الذي لا يتصور عند الأصوليين الهنود ولذا فلا يقلق الغرب كثيرًا لنمو هذه الأصولية.

٦ - وتؤكد على أن الإسلام لا يمكن أن يهزم كما هزمت الاشتراكية والنازية.

٧ - ثم تميز بين الإسلام <الشخصي> فهو جيد والإسلام <الحضاري> فهو سيء وترى أن الخطر كله آت من الإسلام المقاتل. (١٤)

٨ - ثم تعلن أن كل الجهود يجب أن تصرف لعلمنة المجتمع الإسلامي وفيها يكمن التطور.

٩ - وتؤكد أن الحل الوسط يكمن في قبول الغرب بدور الدين في الحياة وقبول العالم الإسلامي بالعلمنة.

١٠ - ثم تقول: إن السبب الحقيقي في الصراع هو توازن القوى، فالمسلمون ينكرون السيطرة الغربية على مقدراتهم، والغرب ينكر عليهم تحديهم لتفوقه.

١١ - ثم تتحدث عن دور الإيديولوجيا في المجتمع باعتبارها تخدم القوة وإن التضحيات الكبرى تحتاج لمبرر أيديولوجي، وترى أن القيم الغربية لا يؤبه بها إذا لم تخدم المصالح.

١٢ - وتعود فتؤكد أن النظام السياسي الإسلامي غير واضح في الكتاب والسنة. كما تؤكد وحدة الدين والسياسة ومفهوم الأمة عند المسيحية واليهودية سعيًا منها لتحقيق التقارب باعتبار أن المجتمع الإسلامي يقبل العلمنة (وإن كانت تعترف أن النظام الإلهي والعلمنة لا يجتمعان) وحينئذ لا حتمية للصراع.

١٣ - وتؤكد أنه لا توجد نظرية متكاملة للعلاقات الدولية في الإسلام. ولكنها تنتقد من يسطح موقف الإسلام، ثم تعود لتؤكد أن الإسلام توسّعي معاد للآخرين باعتباره يريد أن يحكم العالم، ساخرة من هانتنغتن الذي يرى أن المسلمين لا يعرفون منطق المساواة.

١٤ - ثم تركز على حكم «الجهاد» فترى أنه يتنافى مع مبدأ ﴿لا إكراه في الدين﴾ ولكنها تخفف منه لأنه مبدأ دفاعي، وتقترح على المسلمين أن يرجئوا الهدف العالمي.

١٥ - وتنتقد التصور الغربي للإسلام ورؤيته للعالم وأن المسلمين يتعاملون ككتلة واحدة فيجب التعامل معهم كذلك.

١٦ - وبعد أن تتحدث عن مهارة الرسول(ص) في التعامل مع أعدائه تتهم المسلمين في صدر الإسلام بأن دوافع اندفاعهم لم تكن عقائدية فقط، تماما كما هو الحال في الحروب الصليبية.

١٧ - وتؤكد أن التمزق الذي يعيشه المسلمون حوّل مفهوم دار الإسلام من مفهوم سياسي إلى مجرد مفهوم ديني، وأن الدعوات إلى الوحدة الإسلامية لا تجد لها صدىً اليوم.

١٨ - كما تذكر أن ممارسات المسلمين ضد حقوق الإنسان لا علاقة لها بالإسلام.

١٩ - وتعتبر حركة الإحياء الإسلامي هي المسببة لصراع الحضارات. وترى أنها بدورها معلولة لخصائص الإسلام.

٢٠ - وتتعرض إلى فكرتي علاقة الدين بالسياسة، وكيان الأمة الإسلامية فتعتبرهما

أسطورتين، وترى أن الأمة الإسلامية لم تقم لها قائمة منذ وفاة النبي(ص)، إلا أنها تؤكد أن هاتين الفكرتين ساهمتا في وجود حركة الصحوة (كتعبير عن دور عنصر القيمة) إلى جانب عوامل أخرى كانقسام المجتمعات، وتهميش العناصر الإسلامية، وجهود التقليديين لتغيير معادلة القوة (كتعبير عن عنصر المصلحة).

٢١ - ومن هنا فالصراع مع الغرب ليس حتميًا لأنه لا يعتمد على العنصر القيمي فقط كما يقول (الاستشراقيون الجدد) الذين يدعون نتيجة دعواهم هذه إلى قمع العالم الإسلامي، وهؤلاء من أمثال <كرامر> الذي يوجه نقدًا لاذعًا للرئيس كارتر لأنه سمح لظهور ظاهرة <آيات الله>، ومثله برلمونز. ويقف في قبال هذا التفسير من تسميهم بـ<العالم ثالثيين الجدد> من أمثال <بورغات> الذين يقبلون وجود العنصرين (القيمة والمصلحة) في مجال تنظيم العلاقة ومن هنا فهم يدعون للتصالح، وهي تؤيدهم في ذلك.

٢٢ – وترى أن عوامل النهضة الإسلامية تتمثل في:

تمزق عوامل النسيج الاجتماعي القائم في القرن الثامن عشر وبالتالي تحول العلاقة من علاقة تدين إلى علاقة مسيطِر ومسيطَر عليه. مما خلق اتجاهين متخالفين، اتجاه العودة للإسلام إما بشكل حرفي كالاتجاه السلفي أو بشكل مرن كمدرسة إقبال وسير سيد أحمدخان والمرجاني وغيرهم.

٢٣ – وفي صدر تقييمها للأفغاني وعبده وهل هما إصلاحيان أو منافقان تعمل على ترجيح الجانب السلبي استنادًا للجواب الفاتر للأفغاني على هجوم <رينان> على الإسلام باعتباره خرّب الحضارتين السابقتين عليه، وترى أنه أي الأفغاني استخدم <التقية> في ذلك.

٢٤ – وتذكر أنه على الصعيد السياسي بدأ الزعماء من منتصف القرن التاسع عشر بالتحديث: أمير كبير في إيران، العثمانيون في تركيا، محمدعلي في مصر، الثورة الدستورية في إيران ١٩٠٥م ثم ثورة التحديث التركية وتعقب بأن الإصلاحيين المسلمين

واجهوا العلمانيين والتقليديين معا.

٢٥ – وانتصر العلمانيون انتصاراً زائفًا في الفترة ما بين ١٩٢٠ و ١٩٧٠ حيث فرضت العلمانية فرضًا على المسلمين، وحدث التشظي الثقافي والصراع التحالفي فتارة يتحالف القوميون مع الإسلاميين ضد اليساريين، وأخرى يتحالف اليسار والإسلاميون ضد التقليديين، وثالثة يثور النزاع بين خريجي الجامعات الغربية ودارسي اللغة العربية. ولكن التحديث فشل في مسعاه، وعاد التمسك بالإسلام باعتباره هو الحل.

٢٦ – وترى أن الثورة الإسلامية استفادت من خصائص الدين لتحريك الجماهير، ولكنها لم تحقق الطموحات فعادت تواجه حقيقة مهمة هي انفصال الدين عن السياسة.

وبعد أن تتعرض لآراء الدكتور سروش في النسبية وتشبهها بآراء سير سيد أحمد، تقول إن هذا يعني أن الإسلام يقبل الإصلاح.

٢٧ – ثم تتحدث عن العوامل الخارجية للصحوة من قبيل قيام إسرائيل، هزيمة ٦٧، الثروة النفطية، هزيمة السوفيت في أفغانستان، نجاح الثورة الإسلامية في إيران ولكنها تقول إن قبولها بوقف الحرب عام ٨٨ أحبط الآمال.

٢٨ – ثم تعود فتقول إن الغرب يعادي الصحوة لأنها تكتنز عداءاً له نتيجة سياساته هو لا نتيجة أن الإسلام بخصائصه يعادي الغرب.

وتذكر أن أمثال برنارد لويس ودانيال بايبس من المستشرقين الجدد يرجعون عداء الصحوة الإسلامية للغرب إلى الخوف والحسد وتنتقد هذا الرأي وإن كان فيه شيء من الواقعية، تمامًا كما يحسد الغرب اليابان والصين، في حين رأى آخرون أن الحقد الإسلامي ناتج من سياسات الغرب، ولذلك يشارك العلمانيون المسلمين في هذا الرأي.

٢٩ – وتقول بعد ذلك في صفحة ١٤٨ «أظهر هذا النقاش بوضوح أن نشوء الظاهرة الإسلامية كان إلى حد كبير جزءاً لا يتجزأ من تطور التجربة الإسلامية في سياقاتها الزمانية والمكانية المتنوعة. فهي شأنها شأن الأوجه الأخرى للتجربة الإسلامية أتت

مرتبطة بالتطور والتحول الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والثقافي للمجتمعات الإسلامية، وديناميات مجابهتها للعالم غير الإسلامي وللقوى والأفكار الصادرة عنه... إن المرحلة التالية قد تكون بالفعل علمنة أكبر المجتمعات الإسلامية وحركة باتجاه توليفة بين التعاليم الإسلامية والمفاهيم الغربية.

٣٠ – وتدخل بعد هذا في السياسة الخارجية لبعض البلدان الإسلامية لتثبت أن الإسلام ليس وحده الدخيل في تنظيمها ولتستنتج النقاط التالية باختصار:

أ – سيبقى تأثير الإسلام قليلاً في سلوك الدول الإسلامية ويستبعد أن يكون للمسلمين كيان موحد.

ب – ستختلف علاقات هذه الدول مع الغرب من متوترة إلى ودية.

ج – لن تحل علمنة العالم الإسلامي كل المشاكل، وإن كان لها التأثير الكبير ما دامت هناك مصادر أخرى للخلاف كسعي البلدان الإسلامية في إصلاح التوازن السلبي للقوة في مواجهة الغرب.

د- ستتوازن العلاقة مع الغرب مع مستوى تعاطفه مع القضايا الإسلامية ولكن المصالح الدنيوية لكل دولة أيضًا ستؤثر على علاقاتها .

هـ – وستبقى المنافسة بين الدول الغربية نفسها في مجال بسط النفوذ .

و – إن احتمال تكوّن قدرة منافسة للغرب سوف يزيد من تحديات المسلمين في حين أن فقدان احتمال تكوّن هذه القدرة ربما ينتج موقفًا أكثر تساهلاً.

هذه خلاصة لبعض الأفكار الواردة في هذا الكتاب الحديث.

نظرة نقدية

وينبغي لنا بعد إجراء مسح فاحص أن نطرح النقاط التالية:

النقطة الأولى:

قبل كل شيء، نرى لزامًا علينا أن نذكّر بجرأة الكاتبة في الاعتراف ببعض الحقائق

المرة لدى الغربيين من قبيل:

أ – تقرير حقيقة أن الإسلام لا يمكن أن يهزم من خلال انتصارات عسكرية وأمثالها كما هزمت النازية والاشتراكية وأمثالهما.

ب – إن الايديولوجيا لا يمكن أن تفصل عن الحياة الاجتماعية ذلك لأن المسألة الاجتماعية يجب أن تقام ـ ولو بشكل لا شعوري ـ على المسألة الفلسفية وإلا عادت بلا هدف ولا مبررات.

جـ – إن الغرب لا يأبه بالقيم التي يدعيها كالديمقراطية وحقوق الإنسان إذا لم تخدم مصالحه.

د – إن العلمانية لا تجتمع مع النظام الديني حتى ولو كان مستمدًا من المسيحية أو اليهودية.

هـ – إن الذين ينظرون إلى رؤى الإسلام بسطحية هم سطحيون .

و – السخرية من هنتنغتن عندما يقول إن الإسلام لا يعرف المساواة .

ز – التفريق بين إيمان الإسلام بحقوق الإنسان وعمل المسلمين.

ح – الاعتراف بأن العلمانية فرضت فرضًا على العالم الإسلامي .

ط – إن الغرب قد ينطلق من مواقف أخلاقية منحطة كالحسد والحقد وأمثال ذلك.

النقطة الثانية:

تتصور الكاتبة أن الأمر يدور بين المواقف المبنية على القيم الإسلامية فلا يمكن التصالح، والمواقف المصلحية، فهناك إذن مجال للحلول الوسط. ولكن الحقيقة هي أن الإسلام:

أولاً: يعتبر المصلحة المنسجمة مع مقاصده قيمة بنفسها ولربما قدمها على كثير من أحكامه في بعض الأحايين.

ثانيًا: يمتلك عناصر مرنة كثيرة توفر للأمة القدرة على استيعاب المتغيرات الزمانية

والمكانية والخروج من الطرق المسدودة، من قبيل امتلاكه مراتب من الأحكام الأولية والاضطرارية والحكومية، ولكل منها خصائص ومجالات معينة كالمنطقة المفتوحة للحاكم الإسلامي ليملأها وفق ما تقتضيه المتغيرات.

على أننا لا يمكننا أن نجعل السلوك الغربي المتوحش أصلاً (بل يعتبره فوكوياما نهاية التطور التاريخي) ونطلب من الإسلام أن يكيف نفسه دائمًا معه تحقيقًا للتعايش، تمامًا كما يطلب من الفلسطينيين التنازل عن الأرض والكرامة وحتى حق مقاومة الاحتلال لإحلال السلام والتعايش.

وهذا منهج نشهده لدى الكتاب الغربيين وأتباعهم لدينا، فأنت تشهدهم يجعلون الغرب معيار التقدم والحداثة ويبقى على العالم الإسلامي، إذا أراد التطور، أن يكيف نفسه مع ذلك.

فالمسلك الصحيح هو أن يقوم المخلصون لمستقبل الإنسانية بتقييم السلوك الأمثل أولاً ثم يطلب ممن لايذعن له أن يمتثل للحق وهذا منهج إنساني يقتضيه المنطق ويؤيده القرآن في مجالات الإصلاح.

النقطة الثالثة:

إذا تتبعنا التحليلات والحلول والتصريحات الغربية الممتدة على خط الزمان وعلى مختلف المستويات نجد أن الهاجس الأكبر لدى الغرب هو هاجس تقديم الإسلام للبديل الحضاري المتميز ذي الطابع القيمي اللامنسجم مع القيم الغربية، والذي يحمل في ذاته عنصر البقاء والنمو المتواصل ، والحفاظ على الذات، ومنع الآخر من الاستغلال. وبالتالي سقوط النموذج الغربي، وانهيار التفوق الحضاري للرجل المسيحي الأوربي الأبيض. وهذا الهاجس ملاحظ في كلمات السياسيين كچرچيل، وديغول، وبرلسكوني وبوش وأمثالهم وفي كلمات المؤرخين كتوينبي والفلاسفة كوليم جيمس والكتاب كهانتنغتن وفوكوياما وبرايان وغيرهم.

وتدخل أمور كثيرة في هذه الدائرة من قبيل:

- تصريحات نيكسون التي عبرت عن إيران قبل الثورة بأنها جزيرة الأمان.

- كلمات بيرلس كوني رئيس وزراء إيطاليا التي رجحت الحضارة المسيحية على الحضارة الإسلامية.

- تصريحات المدعي العام الأميركي في عهد بوش الابن والتي تقارن بكل غباء بين صورة الإله في المسيحية والذي يقدم نفسه فداءاً للبشرية، وصورة الله الإسلامية الذي يطلب من البشرية أن تقدم أبناءها فداءاً له.

- تخوف بعض الدول الغربية كفرنسا من عودة الحجاب الإسلامي كرمز للصحوة.

- تصريحات بوش التي فطن لسخافتها فلم يكررها والتي تؤكد أن ما يسميه بالحرب ضد الإرهاب هي حرب صليبية.

- التصريحات المتوالية التي تعتبر الإسلام ماردًا نائمًا في الشرق الأوسط (من قبيل ما جاء في وصية ديغول، وما ذكرته الصحف الأوروبية كالتايز في عددها المورخ ١٩٨٧/٤/٢٩).

- ما ذكره ريتشار بيرل مستشار البنتاغون الذي تصفه الديلي تلغراف بالمفكر الديني وديفيد فرام وهو كاتب خطابات بوش في كتابهما *دليل الانتصار في الحرب ضد الإرهاب* من أن الأصولية الإسلامية هي أكبر داعم للإرهاب فيجب استهدافها.

وقامت الدراسات الغربية بتشجيع من أسموهم <دعاة التحديث المؤيدين للغرب> بقوة ومنها دراسة قام بها معهد <راند لأبحاث الرأي> في أميركا داعية لحذف الأصوليين والتقليديين المخالفين للقيم الغربية (نقلا عن صحيفة الخليج الإماراتية العدد ٩٠٧١).

ومن هذا الهاجس الذي تعاظم في الثمانينات وأوائل التسعينات من القرن الماضي انطلقت فكرة الإستراتيجية الأمريكية الجديدة عام ٩٧، بل من هذا الهاجس جاءت التصرفات الغربية الكبرى طوال القرون الأخيرة إن لم نمتد بها إلى مدىً أبعد، ومنه أيضا جاءت العولمة التي تعني في الواقع غربنة العلاقات السياسية والثقافية والاقتصادية

والاجتماعية أو أمركتها، وركوب موجة الاتجاه العالمي الطبيعي من الكثـرة إلى الوحـدة في مختلف المجالات.

هذا الهاجس الذي تعبر عنه الكاتبة بالحسد أحيانًا دفع الغرب لفرض واقع التخلف بشتى أنواعه، والتمزق، والعلمنة على العالم الإسلامي.

أما التخلف فحدّث عنه ولا حرج سواء أكان في المجـال العلمـي، أو الاقتـصادي أو العسكري أو الثقافي أو الاجتماعي. وواضح أن الغرب لم يسمح إلا بـالنزر القليـل مـن التقدم إبقاءاً على ادعاءات التحضّر الإنساني.

ولا نريد هنا أن نقلل من تقصير المسلمين في هذا المجال ولكن من غير المشكوك فيه أن السعي الغربي كان على أشده في مجال إبقاء التخلف وتعميق الفـوارق بـين المـستوى الغربي ومستوى العالم الإسلامي بأساليب متنوعة.

وأما التمزق فإن للغرب دوره الأكبر في إيجاده إلى أقصى حد إمـا مباشـرة أو مـن خلال المتأثرين بفكره. ويلاحظ من كلمات الكاتبة مدى التوجس من التوحد حتى أنها تقرر في نهاية كتابها أن الوحدة الإسلامية والكيان الإسلامي الموحد أمر بعيد المنـال في المستقبل بل إن مجـرد ظهـور شـعور بالإسـلام الـشمولي، وظهـور الـدعوات الأوليـة للمنظمات الشمولية في العالم الإسلامي في النصف الثاني من القرن الماضي قلب المـوازين الغربية فراحوا يحسبون له ألف حساب. ومـن حـساباتهم تفريـغ هـذه المنظمـات مـن محتواها وإبقاؤها على مستوى الإشباع الـشكلي والعـاطفي لجوعـة عارمـة ، ورغبـة جماهيرية لا تقاوم للوحدة الإسلامية. ويتخذ التمزق هذا أشكاله المتنوعة، فهناك تمـزق على أساس القومية وآخر جغرافي وثالث لغوي ورابع في الولاء وخـامس في المـستوى المعيشي وهلم جرّا، والكاتبة تعتبر أن عملية تمزق النسيج الاجتماعي للعـالم الإسـلامي شكلت أحد عوامل الصحوة الإسلامية والدعوة إلى العـودة للإسـلام دون أن تتحـدث عن الدور الذي لعبه الغرب في القضاء على الدولة العثمانية ونشر الفكر القومي الـضيق، وإيجاد الخلافات بين الكيانات المصطنعة وأمثال ذلك.

وأما العلمنة فهي الداء الوبيل الذي ضرب عالمنا الإسلامي واستطاع إلى المدى الأكبر أن يسيطر على مجمل أرجائه . وقد شجع الغرب العلمنة بشتى الأساليب حتى أن الكاتبة اعترفت بأنها فرضت فرضًا خلال الأعوام ١٩٢٠ – ١٩٧٠ وأنها لم تحقق المقصود، وذلك طبيعي لأن العالم الإسلامي مهما ابتعد عن الإسلام وأحكامه فإنه يبقى إسلامي النفس والنبرة والأحاسيس. فإذا ضممنا إلى هذه الحقيقة حقيقة أخرى وهي أن الإسلام دين الحياة ولا يمكن فصله عن جوانبها الثقافية والاجتماعية والسياسية، وهي حقيقة يحاول الكتاب الغربيون بل وحتى السياسيون إلى اليوم إنكارها وهذا ما وجدناه في حديث كولن باول وزير الخارجية الأمريكية بتاريخ ١٤ نوفمبر ٢٠٠٣م وهو ما يركز عليه العلمانيون في عالمنا الإسلامي بل يعملون على منحه أبعادًا فلسفية، ونحن نجد الكاتبة تعمل جاهدة في هذا الكتاب على أن تجعله الحل السحري للصراع، فكل الجهود يجب أن تصرف لعلمنة المجتمع الإسلامي، والنظام السياسي غير واضح في الكتاب والسنة، والمجتمع الإسلامي يقبل العلمنة فلا حتمية للصراع، ولا توجد نظرية متكاملة للعلاقات الدولية في الإسلام، ومبدأ الجهاد يتنافى مع مبدأ نفي الإكراه في الدين، والاتجاه العالمي للإسلام يجب أن يتخلى عنه المسلمون، وحركة الإحياء الإسلامي التي ترفض العلمنة يجب أن يرفضها المسلمون لأنها هي سبب الصراع بين الحضارات، وأن على العالم الإسلامي أن يروض قيمه وفق مصالحه، وأن مسألة انفصال الدين عن السياسة هي حقيقة واجهتها الثورة الإسلامية في إيران ولم تستطع التغلب عليها، وأن الأفكار الإصلاحية النسبية للدكتور سروش تعني أن الإسلام يقبل الإصلاح (وبطبيعة الحال العلمنة)، وأن التوليفة بين الإسلام والغرب تتم من خلال علمنة أكبر المجتمعات الإسلامية، وتعتبرها هي المرحلة المستقبلية. إننا إذا ضممنا الحقيقتين الماضيتين: (حقيقة أن النفس الإسلامي هو الطابع العام للعالم الإسلامي) و(حقيقة أن الإسلام لا يمكن فصله عن الحياة)، عرفنا بوضوح بطلان كل المساعي لعلمنة العالم الإسلامي. وليت الكاتبة عمقت قولها السابق بأن النظام الديني مهما كان لا يجتمع مع

العلمنة وأدركت بالتالي ما قلناه، اللهم إلا أن نسلب الإسلام صفة النظام ونبقيه مجرد تعاليم أخلاقية سطحية وهذا مالا يمكن تحقيقه.

إن للإسلام رأيه في كل السلوك الإنساني وإن كل من عرف الإسلام أدرك أنه مامن واقعة إلا ولله فيها حكم أو فيها كتاب وسنة كما يقول الإمام الصادق(ع)[١٥] . ولا يمكن أن يكون الإنسان مسلمًا حتى يلتزم بأحكام الإسلام ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجًا مما قضيت ويسلموا تسليما﴾[١٦] .

النقطة الرابعة:

إن الصحوة الإسلامية في الأساس جاءت لترد على العناصر الثلاثة الماضية (التخلف، والتمزق، والعلمانية)، ولتحقق العودة إلى الإسلام بكل مقتضياته. فالإسلام دين التقدم، يدعو إلى العلم بشتى، أنواعه، ويطلب من الأمة الإسلامية أن تحقق كل عناصر القوة، وأن تبذل أقصى جهدها لتكون خير الأمم، ولتكون في الطليعة الحضارية للناس. والتخلف حالة غير طبيعية مطلقًا.

والإسلام دين الوحدة الإسلامية، والتخطيط الإسلامي للوحدة واضح تمامًا، فالقانون واحد، والقائد واحد، والعواطف واحدة والشعارات والعبادات واحدة، وثروات الأمة هي ملك كل الأمة وقد جعلت لها قوامًا وقيامًا، وحقوق المسلمين جميعًا متكافئة، لا بل قد يشترك كل المسلمين في بعض أنواع الملكية، والتكافل والتوازن في مستوى المعيشة شاملان لكل المسلمين، والمسلمون جميعًا مسؤولون عن مجموع الأمة وحدودها مسؤولية مشتركة.

أما الحالة الراهنة، والتبريرات التي تساق لها فهي كلها استثناءات يجب أن يعمل الجميع على حذفها في النهاية والعودة إلى واقع الإسلام. ولا نجد عالـمًا أو حتى مجرد مطلع على حقيقة الإسلام يجادل في هذه الحقيقة الواضحة.

والإسلام دين الحياة ـ كما قلنا ـ فلا يمكن أن ينسجم مع العلمنة بأي تعريف

جاءت، وأية صفة اتخذت إيجابية أم سلبية. أما الاستناد إلى التجارب القائمة فهو مجـرد خداع لأنها تجارب مفروضة على العالم الإسلامي ومتنافية مع حقيقة الإسلام.

وقد نستطيع أن نؤيد الكاتبة في بعض عباراتها فنركز على عنصر <التفـوق> ونقـول إنه سر الصراع. ولكن الذي يجب التركيز عليه أن الرغبة في التفوق عامل طبيعي يعمـل على تطوير الحياة الإنسانية في كل المجالات إذا اتخذ منحى إيجابيًا تنافسيًا. كما يـؤدي كغيره من العوامل الطبيعية إلى الخراب والدمار والظلم إذا اكتسب الصفة السلبية واعتمد عامل الحذف بالقوة والهيمنة ومحو الآخرين، كما نجده اليوم في العولمة والتعامـل الغـربي مع المسلمين.

إن الصحوة الإسلامية إذن تدعو للتفوق الإسلامي الحـضاري ، وهـذا لا ينبغـي أن يثير حفيظة الآخرين إن كانوا يملكون الروح الرياضية الحضارية، وأنّى لهذه الـروح أن تسود.

أما عن عوامل هذه الصحوة فلا نتوقع للكاتبة أن تكشف لنا عن العوامل الحقيقيـة، ولذلك تلجأ إلى العوامل الجانبية وربما تسطح فكرها هي عندما تطـرح فكـرة الحـسد وتغير العلاقات وأمثالها.

إننا نتصور هذه العوامل ـ على ضوء دراساتنا للساحة ـ كمايلي:

أولاً: طاقات الإسلام الذاتية التي لا تفتأ تمد المسلمين بدوافع التغيير، وتـشدد علـى الحفاظ على الهوية الحضارية بعد أن أعطتها معالمها الشاملة ، بـل وتـدفع دائمًـا علـى الحفاظ على التفوق أو استعادته إذا فقد. وقد مر بنا القول إن كل أساليب التمييع سوف تبقى آثارها وقتية لأن الإسلام بطبيعته يدعو للوحدة ويرفض العلمنة.

والكاتبة تتردد في إشارتها لهذا العامل فتارة تعترف به (انظر مـثلاً البنـود ٤، ٦، ٧، ١٣، ١٩، ٢٦) وأخرى تحاول أن تقلل من أهميته (لاحـظ مـثلاً البنـود: ١٢، ١٣، ١٤، ٢٠، ٢٦، ٢٨).

ثانيًا: اشتداد الحملة الأوربية على العالم الإسلامي بحيث استباح الغرب كل الثروات، واستعمر معظم البلاد، واعتدى على الهوية الثقافية، بل راح يهاجم المكونـات العقائديـة

والأخلاقية، وينشر الرذائل، ويمزق النسيج الاجتماعي من خلال عملائه الحقيقيين أو الثقافيين، ويزرع الكيان الصهيوني الغاصب في قلب العالم الإسلامي. ولاريب أن حملة من هذا القبيل سوف تواجه برد فعلٍ قوي من أمة يبقى الإسلام فيها حيًا ، رغم عمليات القضاء عليه.

لا نريد أن نطيل في الحديث عن هذا العامل لوضوح أبعاده ، ووضوح حقيقة أن الاحتلال يستتبع المقاومة بشتى ألوانها. ولعل الغرب شعر بهذه الحقيقة حين حاول التنفيس والاستعاضة عن ذلك بإعطاء الاستقلال الصوري لبعض المناطق الإسلامية. ولكن هذا العمل بنفسه وفر فرصةً لنمو الصحوة الإسلامية بشكل واسع وانطراح الإحساس الإسلامي بالإسلام الشمولي في الستينات واتساعه بشكل مرعب للغرب في السبعينات والثمانيات.

ثالثًا: فشل كل الحلول والأطروحات البديلة للمقاومة والتغيير، لأنها كانت تحمل في داخلها عناصر فشلها. لقد فشلت الأطروحة القومية الضيقة رغم التطبيل والتزمير، ورغم نزولها المبكر إلى الساحة وتحقيقها الكثير من الأهداف الغربية ومسحها الكثير من السمات الإسلامية في تركيا وغيرها. ذلك لأنها لا تنسجم مع الطبيعة الإسلامية التي تتجاوز القوميات.

كما فشلت الاشتراكية لأنها اعتمدت على أسس إلحادية رغم تمتعها ببعض الشعارات المنسجمة مع بعض التعاليم الإسلامية كالعدالة الاجتماعية والدفاع عن المحرومين ومعاداة الاستعمار. وفشل الشكل التركيبي (الاشتراكي القومي) أيضًا لأنه أيضًا تركيب وهمي لا ينسجم مع الحس الإسلامي ولا يعبر عن أية إضافة معرفية.

وهنا أود الإشارة بشكل وافر إلى التحليل الرصين الذي كتبه أستاذنا الشهيد الإمام محمدباقر الصدر حول هذا الموضوع حيث قال: <إن الأمة على الصعيد الإسلامي وهي تعيش جهادها ضد تخلفها وانهيارها وتحاول التحرك السياسي والاجتماعي نحو وجود أفضل وكيان أرسخ واقتصاد أغنى وأرفه سوف لن تجد أمامها عقيب سلسلة من محاولات الخطأ والصواب إلا طريقًا واحدًا للتحرك وهو التحرك في الخط الإسلامي>،

ويضيف: <حينما أخذ العالم الإسلامي ينفتح على حياة الإنسان الأوربي ويذعن لإمامته الفكرية وقيادته لموكب الحضارة بدلاً عن إيمانه برسالته الأصيلة وقيمومتها على الحياة البشرية بدأ يدرك دوره في الحياة ضمن إطار التقسيم التقليدي لبلاد العالم الذي درج عليه الإنسان الأوربي حين قسم العالم على أساس المستوى الاقتصادي للبلد وقدرته المنتجة إلى بلاد راقية اقتصاديًا وبلاد فقيرة أو متخلفة اقتصاديًا، وكانت بلاد العالم الإسلامي كلها من القسم الثاني>، وبعد أن ذكر أن العالم الإسلامي ظن أن الخلاص يكمن في تبعية الغرب راح يبحث عن هذه التبعية في التبعية السياسية، والاقتصادية والمنهجية التي تمثلت إما في الاقتصاد الاشتراكي، أو في الاقتصاد الرأسمالي، وكان لكل من المنهجين ما يبرره. بعد هذا راح ينتقد أولئك الذين يغفلون – عند محاولتهم تطبيق خطة ما – العامل النفسي للأمة <فلابد للأمة بحكم ظروفها النفسية التي خلقها عصر الاستعمار وانكماشها تجاه ما يتصل به أن تقيم نهضتها الحديثة على أساس نظام اجتماعي ومعالم حضارية لا تمت إلى بلاد المستعمرين بنسب> وكان الحل المقترح هو اتخاذ القومية فلسفة وقاعدة للحضارة، ولكن القومية <ليست إلا رابطة تاريخية ولغوية وليست فلسفة ذات مبادئ ولا عقيدة. فنادت بالاشتراكية العربية تغطية للواقع الأجنبي المتمثل في الاشتراكية من الناحية التاريخية والفكرية وهي تغطية فاشلة لا تنجح في استغفال حساسية الأمة، لأن هذا الإطار القلق ليس إلا مجرد تأطير ظاهري وشكلي للمضمون الأجنبي>... ولا يمكن لدعاة الاشتراكية العربية أن يميزوا الفوارق الأصلية بين اشتراكية عربية واشتراكية فارسية واشتراكية تركية> ويقول بالتالي: <وبالرغم من أن دعاة الاشتراكية العربية قد فشلوا في تقديم مضمون حقيقي جديد لهذه الاشتراكية عن طريق تأطيرها بالإطار العربي فإنهم أكدوا بموقفهم هذا تلك الحقيقة التي قلناها وهي أن الأمة بحكم حساسيتها الناتجة عن عصر الاستعمار لا يمكن بناء نهضتها الحديثة إلا على أساس قاعدة أصيلة لا ترتبط في ذهن الأمة ببلاد المستعمرين أنفسهم> ويقول عن الإسلام الذي يواجه هذه الأطروحات <إن هذه القوة مهما قدرنا لها من تفكك وانحلال نتيجة لعمل الاستعمار ضدها في العالم الإسلامي لا يزال لها أثرها الكبير في توجيه

السلوك وخلق المشاعر وتحديد النظرة نحو الأشياء> [١٧] .

ونعود إلى الكاتبة لنجدها أحيانًا تشير لهذا العامل حين تؤكد أن العلمانية حققت نصرًا زائفًا خلال خمسين عامًا ولم تستطع أن تحقق الطموح وعاد التمسك بالإسلام هو الحل.

رابعًا: ظهور شخصيات توعوية كبرى كان لها الأثر المتفاوت في إيجاد هذه الصحوة أو مقدماتها أو ترشيدها أو إعطائها طاقات حماسية وفكرية أو منحها الثقة بنفسها والأمل الواعد بمستقبلها الحتمي، إضافة للوعود الإلهية الحتمية بانتصار المؤمنين، والمستضعفين، وحلول العدل الشامل وظهور المصلح المنتظر(ع).

ويمكننا أن ندرج في قائمة هذه الشخصيات الكثير من الكبار من أمثال السيد جمال الدين الأسد آبادي (الأفغاني)، وإن حاولت الكاتبة التشكيك في إخلاصه. ومحمد عبده، وقد شككت فيه أيضًا بل جعلته عاملاً على اتجاه بعض تلامذته للعلمنة والميرزا النائيني كاشف الغطاء والإمام الخميني وسيد قطب والإمام الصدر والمطهري والغزالي والبهشتي وغيرهم كثير.

خامسًا: ويجب أن لا ننسى دور التطورات والحوادث الكبرى في إذكاء هذه الصحوة من قبيل:

١ـ تنامي مستوى وسائل الاتصال ، والحركة المعلوماتية ووسائل الإعلام المرئية والمسموعة.

٢- ارتفاع مستوى التعليم الإسلامي

٣- تطور أساليب الدعوة إلى الإسلام.

٤- توفر بعض أجواء الحرية في العالم الإسلامي.

٥- اشتداد حركة مقارعة الاستعمار.

٦- قيام المؤسسات الدولية الإنسانية المدافعة عن حقوق الإنسان والداعية لتنظيم العلاقات الدولية على أسس إنسانية .

٧- حدوث بعض الحوادث المروعة كإحراق المسجد الأقصى أو هزيمة عام ٦٧.

٨- انتصار الثورة الإسلامية الكبرى في إيران، وانتصار المجاهدين الأفغان على الاتحاد السوفيتي.

٩- انهيار الاتحاد السوفيتي وتحرر الدول الإسلامية.

وغير ذلك من التطورات التي ساهمت في اتساع الصحوة الإسلامية ونشر مفاهيمها ودعوتها في رفض التخلف والتمزق والعلمنة، والعودة إلى الحل الإسلامي الذي لا بديل له...

الهوامش:

١ - راجع مثلاً: الدر المنثور عن أحمد والترمذي والنسائي وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم والبيهقي وغيرهم.

٢ - مكاتيب الرسول ج ٢ ص ٣١٦ .

٣ - مكاتيب الرسول ج ٢ ص ٣٨٨ مثلاً.

٤ - مكاتب الرسول ج ٢ ص ٣٩٠ .

٥ - راجع كتاب حركة الفتح الإسلامي للأستاذ شكري فيصل .

٦ - الإسلام والعالم المعاصر ص ١٣٠ .

٧ - م. ن ص ١٣٢ .

٨ - بيدهام برايان في الايكونومست اللندنية سنة ٩٤ .

٩ - الإسلام والغرب ص ٣٤ كتاب التوحيد.

١٠ - وقد ألف الشيخ الغلاييني كتابه (الإسلام روح المدنية) للرد عليه وصدر في نفس العام .

١١ - مستقبل الإسلام والغرب ص ٩٥ وسنركز في ما تبقى من حديث على هذا الكتاب .

١٢ - محمد جابر الأنصاري في مقاله المنشور في (ثقافتنا) ص ١٥٣ العدد الاول نقلا عن محمد محمد حسين .

١٣ - مستقبل الإسلام والغرب ص ٩٩.

١٤ - هذا التعبير ورد في متن الاستراتيجية الأميركية التي نشرت عام ١٩٧٩ واكدت على ضرورة محاربة الإسلام المقاتل وتقصد به الإسلام السياسي.

١٥ - أصول الكافي ج ١ باب الرد إلى الكتاب والسنة – ح ٤ ص ٥٩.

١٦ - النساء: ٦٥.

١٧ - اقتصادنا – المقدمة.